

الفصل التاسع

التطبيقات الاصلاحية والتكتونيات الحديثة في الولايات العربية خلال القرن التاسع عشر

(١) العراق:

١/ تجربة الوالي داود باشا ١٨١٧ - ١٨٣١ م

احتدم الصراع البريطاني - الفرنسي من أجل العراق والسيطرة عليه بحكم موقعه على طريق الشرق، فاكتسب أهمية متزايدة، فأنشأت في نهاية القرن الثامن عشر شركة الهند الشرقية التي كان العراق مسرحاً لعديد من فعالياتها القوية على وجه السرعة؛ إذ ساد نفوذ بريطانيا كثيراً في الشرق الأدنى، في حين انحصر النفوذ الفرنسي ما عدا مصر التي كانت تحت حكم محمد علي باشا، وفي حين كرست فرنسا مؤثراتها في مصر، عزّزت بريطانيا مركزها الإقليمي إلى درجة كبيرة في العراق الذي كان يسيطر على استراتيجية الخليج العربي.

عانى العراق كثيراً من الغارات الوهابية في العقد الأول من القرن التاسع عشر، ولم تقتصر تلك الغارات على العراق فحسب، بل طالت بلاد الشام أيضاً، ولم تتوقف تلك الغارات القاسية، إلا بعد الانتصارات التي حققها الجيش المصري على الوهابيين سنة ١٨١١ م، وهددت تلك القوات بالقضاء على الدولة السعودية التي قامت إثر المظاهرات السياسية مع الوهابيين.

ولقد فشل الولاة المماليك في العراق بفرض الهيمنة والسيادة والاستقرار في أنحائه التي عرفت بالإضطرابات والقلائل الدائمة، حتى غدت مأكنة الدولة العثمانية متدينة جداً عند سكان العراق الذين حكمهم المماليك حكماً ذاتياً أقره

العثمانيون، وادارة المماليك «الكوله مند» وفي عام ١٨١٧ م، تسلم الحكم داود باشا الذي اشتهر كثيراً بمكانته السياسية في العراق، ودوره في تطبيق اصلاحات مهمة جداً.. كان داود باشا مملوكاً جورجي الاصل اشتراه سليمان باشا الكبير والتي بغداد، فبرز ممثلاً لمواهب شتى فاختلف عن بقية المماليك، إذ تفوق في الادب والدبلوماسية واللغات الشرقية، فأصبح سكرتيراً للوالى، ثم تزوج ابنته، ثم كون له اتباعاً وجماعات.. اوصلته اخيراً الى الحكم بعدما منح رتبة الباشوية.

حكم داود باشا العراق من خلال هيمنته السياسية الفعالة على ولاية بغداد واثره البالغ في الولايات الأخرى.. حكم حكماً مطلقاً مستبداً على مدى (١٤) سنة، متخدناً من ولي مصر محمد علي باشا انموذجاً في الاصلاح والحكم، ثم أقدم على اتخاذ اجراءات تخدم الاقتصاديات العراقية بالقضاء على نظام الامتيازات الذي كانت تستفيد منه شركة الهند الشرقية، ووكلاؤها من الفرس الذين جردوا من امتيازاتهم الواسعة، وتساووا مع التجار المحليين، فكان رد فعل الشركة قوياً مباشراً، إذ مارست حرباً اقتصادية ضدّ العراق بقطعها المواصلات بين مدینتي بغداد والبصرة، من خلال اسطولها النهري الذي كان يجوب انهار العراق عصر ذلك، فصادر داود باشا بضائع الشركة، وحاصر مقرها في بغداد، وانتهى الخلاف بانهاء اعمال الشركة في العراق، وابعاد موظفيها من البلاد، ولكن الشركة استطاعت الرجوع الى وضعها السابق مع عملائها وموظفيها، مجبرة داود باشا دفع ما صادره من بضائع وممتلكات..

كان ابرز مشكلة يعانيها حكام العراق هو مشكلة «العشائر» والعلاقات القبلية، فقام داود باشا بنضال دؤوب ضدّ الاقطاعية والعشائرية، من اجل اكتساب الولاء له، واخمد الانتفاضات العشائرية، وأقصى من لم يواله من الشيوخ العرب، في حين اصطدم مع البقوات والاغوات الاكراد الذين اراد ان يضع حدّاً لعلاقتهم مع الفرس ضدّ حكومة بغداد، ولكنه فشل في رأب الصدع ، فبدأ بالانتقام من البعض الموجودين في العراق، ولسبب ذلك كله، ازدادت حدة الصراع العثماني- الايراني بازدياد المشكلات الاقليمية، فاندلعت الحرب بين الطرفين ١٨٢٣-١٨٢١ م.

ولكن خسر جيش داود باشا الحرب، لعوامل مختلفة، فوقع معاهمدة ارضروم في شهر آذار / مارس ١٨٢٣ م، كانت تلك الحرب بمثابة الضوء الاخضر لداود باشا الذي تحسّن بقيمة التفوق والتنظيم في الاساليب الحربية- الاوروبية، فضلاً عن تأثيره باصلاحات سيده السلطان محمود الثاني، فشرع بتأسيس جيش

نظامي مستخدما الانكليز في تدريب قواته، وبasherاف الكولونيل تايلر-Taylor-. الذي كان ممثلاً جديداً لشركة الهند الشرقية المقيم في بغداد، فكون الوحدات المنظمة والمدرّبة، وتزود بالمدفعية الحديثة والأسلحة الكثيرة.

احتكر داود باشا شراء المنتوجات العراقية وتصديرها، كما واستملك الباخر التجارية الصغيرة النهرية والبحرية. لقد استثمر داود باشا تجربة محمد علي باشا في مصر كثيراً، فقد وجد داود باشا نفسه ان الوقت مناسب لإعلان استقلال العراق، اذ كان السلطان محمود الثاني قد طالب ولادة الدولة من الباشوات ان يدفعوا للدولة الاموال لمجابهة ما فرض عليها من غرامات حربية. عندما ارسل السلطان مبعوثه الى داود باشا امر هذا الاخير بقتله بعد وليمة الغداء مباشرة، فكان هذا التصرف بمثابة رد وتمرد علني لحكومة بغداد على الباب العالي. وكان داود باشا قد استعد للحرب والدفاع عن مصالحه العراقية، ولا سيما وانه كان قد نجح في بناء جيش عراقي مدرب ومسلح تسليحاً يسمح للمواجهة الى حد ما، اذ كان يتشكل من وحدات نظامية وفيelic تعداد مقاتليه (٢٥) الف جندي من المشاة والخيالة اضافة الى (٥٠) الفاً من أبناء العشائر والقبائل المتنوعة غير المنظمة.

ارسل السلطان محمود الثاني ضد حكومة بغداد قوات يقودها علي باشا رضا اللاز والي حلب، وعلى الرغم من ايمان داود باشا بالنصر لثقة العالية بقواته فان الاوضاع جاءت معاكسة للتمنيات الوطنية.. إذ يحل الفيضان والقطط والوباء، فجاءة لكي يضعف العراق وقوته السكانية، ويكون الجيش عرضة للهلاك إثر انتشار الطاعون بينهم .. هكذا وجدت قوات علي باشا رضا اللاز الطريق سالكة ومفتوحة للدخول الى بغداد، فاحتلت العراق دون مقاومة.

كان المجتمع العراقي قد انهكت قواه، وقد عزل داود باشا في ١٠ ايلول / سبتمبر ١٨٣١ وأرسل الى اسطنبول على الرغم من محاولات عدة لقتله في بغداد وقد انتهت بعهد الباشوات المالكين بنهاية عهده، وانتهت السياسة الامركزية العثمانية.. وبذات الدولة تعين الباشوات على بغداد. ثم عزل داود باشا والي العراق، واعتقل وارسل الى اسطنبول، وبعد فترة من الزمن، أُغْفِي عنه وولى ولاية / نياية البوسنة سنة ١٨٣٣م، ورئاسة مجلس الشورى سنة ١٨٣٨م، ثم ولاية انقرة سنة ١٨٣٩م، ثم تولى مشيخة الحرمين الشرفين للفترة ١٨٤٥-١٨٥١م. وتوفي في مكة سنة ١٨٥١م ودفن فيها.

لقد اهتم داود باشا بالعلماء والادباء والفقهاء. ويعد أول راع للنهضة الادبية في العراق الحديث، كما ونشطت في عهده الحركة التعليمية-المسيحية، ولكنه بنى المساجد، وجدد الادارة، وفتح المدارس حتى بلغ عددها ثمانين وعشرين مدرسة، كما بُرِزَ كثيرون من العلماء العراقيين في عهده، امثال: عبد الله الألوسي وعبد الرحمن الروزبنهاني وعثمان بن سند وغيرهم.. اهتم ايضاً بشق الترعة وحفر الانهار وذراعيها، كما افتتح بعض المصانع، وعلى الرغم من انه يمتلك معرفة واسعة في العلوم. ويحمل اجازة علمية فان اعماله لم تكن مخططة ومدروسة كتلك الاعمال والمنجزات التي نفذها محمد علي باشا، علمًاً بأن هذا الاخير لم يكن مثقفًا ثقافياً داود باشا

نستنتج اذا، ان حكم داود باشا قد اختلف عن حكم محمد علي باشا من نواحٍ كثيرة وصادف داود باشا مشكلات معقدة لا تحصى كالقلائل الداخلية والصراع الخارجي مع ايران، وازعاج بريطانيا له، وطالبيـنـ الـبـابـ العـالـيـ،ـ وـأـمـرـ السـلـاحـانـ محمود الثاني .. كما نستنتاج ايضاً، بأن داود باشا يشكل ظاهرة تاريخية، في حياة العراق الحديث، إذ عاصر عهده عهد محمد علي باشـ وـلـكـنـهـ لمـ يـرـقـ إـلـىـ مـسـتـوـيـ سـيـاسـةـ الـأـخـيـرـ.ـ وقد وجدنا ان امتداد مصر على يـدـ اـبـراهـيمـ باـشـاـ نحوـ الـخـليـجـ العربيـ كانـ سـبـبـاـ مـبـاشـراـ وـراءـ اـنـدـفـاعـ عـرـاقـ دـاـوـدـ باـشـاـ لـحـمـاـيـةـ تـواـزـنـ،ـ الـأـقـلـيـمـ يـ المؤـثرـ.ـ وقد قـدـرـ دـاـوـدـ باـشـاـ أـهـمـيـةـ اـقـلـيـمـ الـاحـسـاءـ،ـ وـأـهـمـيـةـ اـرـتـبـاطـهـ بـالـعـرـاقـ لـأـنـ يـمـثـلـ عـمقـ،ـ الـاسـتـراتـيـجـيـ الـبـحـرـيـ.

هـكـذـاـ،ـ اـنـتـهـىـ عـهـدـ دـاـوـدـ باـشـاـ،ـ وـأـنـتـهـىـ حـكـمـ الـمـالـيـكـ لـلـعـرـاقـ،ـ فـضـلـاـ عـنـ نـهـاـيـهـ،ـ حـكـمـ الـأـسـرـ الـمـلـيـةـ فـيـ شـمـالـ الـعـرـاقـ..ـ وـانـ تـارـيـخـ اـصـلـاحـيـاـ جـديـداـ بدـأـ يـعـملـ فـيـ تـجـربـةـ مـنـ نـوـعـ آـخـرـ،ـ اـزـدـادـتـ فـيـهـاـ تـدـخـلـاتـ الـحـكـومـةـ فـيـ شـؤـونـ الـجـمـعـيـمـ الـذـيـ نـظـلـ إـلـىـ الـاصـلـاحـاتـ نـظـرةـ غـيرـ مـطـمـئـنـةـ،ـ إـذـ لـمـ يـثـقـواـ بـالـنـوـاـيـاـ الـجـديـدةـ.

لقد حكم العراق من نهاية عهد داود باشا الى عهد مدحت باشا سنة ١٨٧٦م. احد عشر وليا، كان اولهم علي باشا رضا الاز الذي حكم احدى عشرة سنة للفترة ١٨٣٠ - ١٨٤٢م، وجاء من بعده الوالي محمد نجيب باشا الذي حكم حتى عام ١٨٤٩م، وكلاهما اضطهد الشعب العراقي ماديًّا ومعنوياً. لكن اترت التنظيمات الخيرية في العراق بدون شك، وقد بدلت الاصلاحات غريبة على المجتمع من خلال تطبيق القوانين الجديدة في ما يتصل بالخدمة العسكرية والضرائب.

ونظام «المختارين» (أي: جمع مختار، وهو موظف شبه اداري يكون مسؤولاً عن محله، معينة). وبعد سنوات ثلاثة، بدأ العمل بالحجر الصحي، وجوازات السفر، وتأسست المدارس الرشدية.. وقد أثارت قراءة مرسوم «خطي شريف كولخانة» في بغداد سنة ١٨٣٩م، المخاوف من سلطة الدولة على المجتمع الذي ازداد نفراً وابتعاداً عن التسلط الذي فرضته المركزية- العثمانية.

يخبرنا عدد من المؤرخين^٢ نقاًلاً عن القنصل الانكليزي في بغداد تايلر Taylor الذي كان قد ذكر في كانون الأول سنة ١٨٣٣م، أن أهالي بغداد أخذوا يتعلّعون إلى محمد علي باشا في مصر، والتخلص من الضيم الذي الحق بهم على رضا باشا.. وذكر أن بغداد «كانت ترزع تحت أسوأ حكم عرفته في تاريخها» وقد أحسن على رضا باشا اللازم بالامر، فتحالف مع السعوديين ضد المصريين واختلف علماء بغداد في طبيعة ولاءاتهم، الا انهم تعاطفوا مع سياسة علي رضا باشا.اما تعاطف كل من اهالي الموصل وشمر الجربا، فكان مع محمد علي باشا، من خلال اتصالاتهم بابراهيم باشا حاكم بلاد الشام.

لقد تقرب علي رضا باشا اللازم من علماء بغداد الذين ناصروه، وقد جعلهم يحملون حملة دينية قاسية على محمد علي باشا، لانه رفع السيف بوجه الدولة العليّة، فوصفوها بالفتنة التي قام بها البغاء «وان قتال البغاء افضل من جهاد الكفار» وان محمد علي باشا قد اثار المخاوف عند الجميع، فقد عرفنا أنَّ الخوالد في اقليم الاحساء قد استنجدوا بباشا للسيطرة على الاحساء الذي داهمته القوات المصرية، بعيد سقوط الدرعية، فانسحب الجيش العراقي، لكن داود باشا استحصل على فرمان من السلطان يقضى بتبعية اقليم الاحساء للعراق، فاستطاع اخلاء من المصريين، وعادته الى الخوالد الذين رضخوا للحكم العراقي.

ان المراسلات وال تحالفات بين علي رضا باشا اللازم والامراء السعوديين ترکي وفيصل وخالد كانت السبب الذي دفع بمحمد علي باشا الى ارسال خورشيد للقضاء على المحاولات الرامية لتأسيس الدولة السعودية الثانية. وقد اسر فيصل بن تركي، وتسلم خورشيد المراسلات السعودية- العراقية في شهر

^٢: أحضر، منهم بالذكْر المؤرخ د. عبد العزيز نوار في كتاباته عن تاريخ العراق الحديث.

نيسان / ابريل ١٨٣٨م، وتحمس ذلك القائد المصري لغزو العراق من خلال السيطرة على اقليمي الاحساء والبصرة، لا سيما وان الرأي العام العراقي كان يتطلع الى حكم «افندينا محمد علي باشا»، وطلب خورشيد من سيده محمد علي باشا ان يأذن له باحتلال العراق، لانه كما قال: «مُلْكٌ عظيم يضاهي مُلْك مصر، وهو الان كالحسام الجوهر الذي سقط في حفيزة، فالتقاطه الان واجب، والشيء الذي صار وقته لا ينبغي تركه». وكان الامر يقضي بوصول المصريين ببغداد، ولكن التدخلات البريطانية حالت دون تحقيق ذلك المشروع الخطير. وبعد اشهر عاد خورشيد من حيث اتى^{*} ...

٢/ الموصل: اجراءات محمد باشا اينجة البيرقدار^{**}

يأتي محمد باشا اينجة البيرقدار في مقدمة ولاة الموصل الذين طبقوا اجراءات صارمة في الحكم، ومنجزات كبرى في الاصلاحية، فقد تولى حكم ولاية الموصل للفترة ١٨٣٣-١٨٤٣م بعد اقصاء الحكم المحلي اثر الاضطرابات الداخلية،

* من المفيد جداً قراءة ما كتبه المؤرخ عبد الكري姆 غرابية عن هذا الموضوع في كتابه: تاريخ العرب الحديث، بيروت، ١٩٨٤، ص ١٢٤-١٢٥. وللمزيد من التحليلات انظر:- فلاديمير لوتسكي، تاريخ الاقطاع العربي الحديث، موسكو، ١٩٧١، ص ٩٠. اما التفاصيل التاريخية فقد اوضحتها د. عبد العزيز نوار، داود باشا والي بغداد، القاهرة، ١٩٨٦. ايضاً: د. يوسف عز الدين، داود باشا ونهاية المماليك في العراق، ط ٢، بغداد، ١٩٧٦.

ان ابرز مصدر تاريفي في اخبار داود باشا وعهده، هو الذي كتبه عثمان بن سند الوائلي البصريي «مطالع السعود بطبيع اخبار الوالي داود» الذي حققه مؤخرًا د. عماد عبد السلام رئوف، الموصل، ١٩٩١. وكان مختصره: «خمسة وخمسون عاماً من تاريخ العراق ١٨٨١-١٢٤٢هـ قد اعده الشيخ امين بن حسن الحلواني، وحققه. محب الدين الخطيب، القاهرة ١٣٧١هـ.

اما اهم المصادر الاوروبية لعهد داود باشا، فهو الذي كتبه كلوديوس ريج.

Rich, Narrative of a Journey to the Site of Babylonia in 1811, London, 1839.

(يحتوي على معلومات واسعة) وانظر ما كتبه كل من سليمان فائق (مرآة الزوراء)، والمحامي عباس العزاوي (تاریخ العراق بين احتلالین).

** انظر: ذنون يونس الطائي، الاتجاهات الاصلاحية في الموصل في اواخر العهد العثماني وحتى تأسيس الحكم الوطني، (رسالة ماجستير غير منشورة باشراف د. سیّار الجميل)، كلية الاداب . جامعة الموصل، ١٩٩٠، ص ٥٤-٥٦.

والصراع الاهلي بين الاسر الموصليه المتنفذة والطامعة في الحكم. كان آخر وآل حكم الموصل هو محمد سعيد باشا آل ياسين المفتى الذي عزل سنة ١٨٣٥ حيث تبدأ صفحة جديدة من تاريخ الموصل العثمانية وقد عادت السيادة المركزية العثمانية الى حكم الولايات، وذلك قبل صدور «خطي شريف كولخانة» سنة ١٨٣٩م. وكان حكم الوالي محمد سعيد باشا آل ياسين ضعيفاً في السيطرة على الاوضاع الداخلية، كما وفشل في وضع حلول للتهديدات الخارجية.. مما جعل امر تنصيب محمد باشا اينجه البيرقدار واليا على الموصل امراً محتماً.

يعد البيرقدار من الولاة الاتراك الاقوياء الذين فرضوا مقدرتهم ادارياً طوال حكمه للموصل. وكان لواليه بغداد علي رضا باشا اللاز دور كبير في تعيين البيرقدار عام ١٨٣٣ فقدم البيرقدار على رأس قوة مؤلفة من ثلاث كتائب من الجندي النظامية وقرابة ثلاثة من الخيالة، ودخل الموصل.. للعمل على استثباب الامن والسيطرة على الاوضاع الداخلية، ومعالجة المشكلات المحلية وتوطيد الحكم العثماني .. فضلاً عن بسط النفوذ العثماني على المناطق الشمالية للعراق، واخضاع الامارات الكردية في شمال العراق. كالبابانية في السليمانية (شهرزور) والبهدينانية في العمادية وامارة محمد باشا (ميركور) في راوندوز.

يعد محمد باشا اينجه البيرقدار احد الزعماء العثمانيين الاقوياء خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر. وقد استمر حكمه للموصل على مدى سنوات طويلة استطاع ان يقدم خلالها المزيد من الانجازات الواضحة باتخاذه اجراءات اصلاحية. واتباعه ادارة شرسه تنفيذاً للسياسة المركزية التي كانت ترسخها اسطنبول، ولا سيما بعد صدور التنظيمات العثمانية التي حدتها جملة من القوانين والتعليمات.

اهتم البيرقدار بانشاء حكومة محلية قوية في الموصل استطاع الاعتماد عليها في تنفيذ اصلاحاته. وكان «الموظفون» الاكفاء قوام حكومته. أما بشأن مالية الحكومة، فقد اعتمد على الضرائب المفروضة التي تجمع بوساطة، المكوس والاعشار والمسقفات ومن تعداد الاغنام .. وعشرون الحاصلات الزراعية. وكان البيرقدار يدفع رواتب الجنود والموظفين وخطباء الجواب من هذه الاموال.

وبغية القيام باعمال تجديد وبناء بنايات الحكومة، جمع البيرقدار، وجها، المدينة والتجار والملاكيين، وطلب منهم ان يساهموا بالمساريف المطلوبة، فنجح في تعمير دور الحكومة التي كانت تسمى بـ«القشلات». وكان ان زار الموصل القائد الالماني الشهير (فون مولتكه) فطلب من البيرقدار ان يضع له مخططاً لهذه المنشآت الحكومية، ففعل ذلك مولتكه فجازاه بأن قدم له البيرقدار ساعة ثمينة.

اهتم البيرقدار ايضاً بشؤون جيشه وتنظيم اموره الاقتصادية والصحية، فأسس عدة آفران خاصة، كما وأنشأ معملًا لصنع المدافع والقنابل والبارود وأسماء بـ«الطوبخانة» مستخدماً بعض الخبراء من راوندوز، فاكملوا صنع ثمانين مدفعاً باشراف «الاسطة رجب» كما قام بتشييد مستشفى في الموصل، وفتح شوارع عدة فيها. فضلاً عن تجديده بعض المساجد. واهتم ايضاً بالتوابي الاجتماعية، اذ وضع العقوبات على من يتعاطى الخمر وارتکاب الرذائل والمحرمات.. كما نجح في تنظيم الامن بالفائئ لبعض الاجهزة القمعية القديمة واستحدث جهاز الدرك والشرطة كقوى نظامية مخصوصاً لهم كلفة خاصة بهم. وأنشأ الثكنات العسكرية الخاصة بالجيش كل حسب صنفه كال المشاة والخيالة والمدفعية، ناهيك عن فرضه «التجنيد الالزامي» فسبب بذلك اثارة الاهالي عليه، فقد عارضوا ذلك بشدة فهددهم ونفي بعض زعمائهم، فاذعن الاهلون لذلك القانون. ومن الجدير بالذكر ان الموصل دون بقية المدن والاقاليم العراقية قد انفرد بذلك، اي كانت السببقة في تطبيق القانون الذي لم يطبق في بقية ارجاء العراق حتى عام ١٨٧٠م^{*}.

ولم تقتصر اعمال الشغب في ذلك على مدينة الموصل لوحدها، بل ثارت تلعز وسنجر ومناطق اليزيدية، مما حمل البيرقدار ان يتعامل مع الانتفاضة بشدة حتى قمعها وبخاصة ضد اليزيديين وعشائر شمر العربية. وكان في اجراءاته قاسيًا فظاً ضد الثوار، وله شراسته في الادارة السياسية ضد الفئات الاجتماعية ولا سيما اهالي مدينة الموصل الذين اعتادوا حكم اللامركزية العثمانية على مدى اكثر من قرن كامل. علماً بأن جميع اجراءات البيرقدار كانت مقتصرة على الجوانب العسكرية المقرونة بالشدة الادارية سواء في المدينة ام في اقاليمها وتوابعها اذا ما قورنت اعماله باعمال وانجازات ولاة اخرين اهتموا بالتوابي العلمية والاجتماعية

* التفاصيل التاريخية من القس سليمان صايغ، تاريخ الموصل، ج ١ القاهرة ١٩٢٧، ص ٢١٧

والاصلاحات المدنية. إذ لم يهتم البيرقدار بالمدارس ولم يقدم على انشاء دور للعلم بسبب النزعة العسكرية التي اتصف بها. خاصة وان شمال العراق كان يعُج بالمشكلات والصعوبات والاضطرابات.

وتوفي البيرقدار سنة ١٨٤٣م بعد ان حكم الموصل قرابة عشر سنوات، كان لها اهميتها بالنسبة لتاريخ العراق الحديث. ثم تعاقب كثير من الولاة الاتراك على حكم الموصل لم يبرز منهم احد في الاصلاحات وكانت سنوات عهودهم قليلة، اذ تعاقب على حكمها حتى الاحتلال البريطاني لها قرابة تسعه وخمسين واليأ، صادفت المدينة والولاية معًا ادارة سيئة واقتصاداً ضعيفاً ومجتمعاً مفككاً ومحروماً من الامن والاستقرار والثقافة والاصلاحات الكبرى.

(٣) العراق في عهد الادارة المركزية ١٨٣١ - ١٩١٧م

١- مرحلة التنظيمات ١٨٣١ - ١٨٧١م

بعد القضاء على سلطة المماليك في العراق عام ١٨٣١م، اثر عزل داود باشا والي بغداد، والقضاء على الحكم المحلي - الجليلي في الموصل عام ١٨٣٤م، اثر عزل يحيى باشا الجليلي.. خضع العراق بولاياته الثلاث: الموصل وبغداد والبصرة الى السلطة المركزية... العثمانية. ولم يكن قد تأثر باصلاحات كل من محمد علي باشا في مصر، او السلطان سليم الثالث او السلطان محمود الثاني في اسطنبول.. بل أصبح العراق منذ زمن طويل مجال نفوذ واسع النطاق لشركة الهند الشرقية **.

لقد كان كل شيء في العراق متدهوراً نتيجة ضعف الحكومات في القرن التاسع عشر ، والمشكلات المتنوعة التي عاشها ، وكانت قواه الانتاجية قد اصبت بخسارة قاسمة نتيجة الاوبئة والکوارث التي اجتاحت مجتمعه على مدى زمني ملويلاً، وغلبت فيه الصراعات القبلية والنزاعات المحلية، وكسدت التجارة كсадاً خطيراً، وقد سادت الفوضى الاقطاعية، والاعراف العشائرية، ودمرت الزراعة، وقنوات الري، فتدحررت اقتصاديات العراق بشكل لم يسبق له مثيل من قبل في تاريخ العراق، بل وقد اندثرت مدن وقرى كثيرة.

** نفاسيل تاريخية في: د. عبد الوهاب القيسي، «حركة الاصلاح في العهد العثماني وتأثيرها في «الراف» ١٨٢٩ - ١٨٧٧»، مجلة كلية الاداب، جامعة بغداد، (العدد ٣)، كانون الثاني ١٩٦١.

ولما كان داود باشا يخطط لاستقلال العراق عن الدولة العثمانية، ولكن الولاة الذين تقلدوا حكم بغداد بعده اذعنوا الحكومة اسطنبول، وارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بالمركزية العثمانية التي عادت من جديد، فلم تستطع القضاء على مقاومة العشائر العراقية التي بدأت تتمرّد على نحو متواصل ضد بغداد، بل واشتعلت بينها حسراءات او تحالفات اقطاعية نتيجة لتضارب المصالح الزراعية والرعوية، ولا سيما قبائل المنتفك وشمر واعنزة.. ناهيك عن العشائر الكردية في شمال العراق التي تأدب بعضها ضمن اطار من الامارات القبلية الاثنية- المحلية، والتي غدت معرضة للتنكيل من العثمانيين الذين كانوا في صراع تاريخي مع الايرانيين حول الحدود المشتركة.. وبقيت حالة الصراع تلك، حتى حسمت بمعاهدة ارضروم الثانية في ٣١ ايار / مايس ١٨٤٧م بين الطرفين والتي تنازل العثمانيون فيها لايران عن المحمرة والساحل الشرقي من شط العرب لقاء مدينة السليمانية العراقية..

هكذا عاشت كردستان في حالة انتفاضة مستمرة كما عاش جنوب العراق . ولم تفلج الجهود العثمانية سواء من خلال ادارة بغداد او ادارة الموصل ان تحسّن المشكلات الداخلية التي أضررت كثيراً بالمصالح المستقبلية للشعب العراقي الذي لم يعرف الاستقرار طوال التاريخ الحديث.

لقد أضررت إعادة المركزية الادارية كثيراً بشؤون العراق الداخلية، إذ اعادت اليه مرة اخرى الولاية من البالشوارات الاتراك الطغاة الذين كانوا بعيدين جداً عن روح العراق ومصالحه التاريخية، وهم الذين تمتّعوا بنفوذ عسكري وسلطات مطلقة، ولكن عندما اسس الفيلق السادس للجيش العثماني، اتخذت بغداد مقرّاً قيادياً لها عام ١٨٤٨م، ففصلت كل من السلطات العسكرية عن المدنية لأول مرة. فغدا للكل من الوالي وقائد الجيش السادس كيان مستقل عن الآخر. وقد جرى تنظيم جهاز الادارة العراقية، فالغيت بعض الانظمة القديمة كالالتزامات.. وبدأ التخصص يسري مفعوله عند الموظفين في الشؤون المالية والوقفية والضرائبية والكتابية.. الخ اي بمعنى: ولادة بيروقراطية عراقية جديدة لم تكن تعرف في السابق. وقد تشكّلت الآن على اسس اوربية حديثة. لكن؟

من الصعب جداً وصف تلك الاجراءات بالحداثة او التحديث، ذلك لأن الممارسات الادارية المدنية والعسكرية كانت مشبعة بروح التخلف والفساد

والاستبداد، إذ عانى العراقيون كثيراً من التعامل الفظ، والقسوة والاساءة من قبل الموظفين الاداريين او الضباط العسكريين الذين كانوا يفرضون الاتاوات والرسوة، ويبتزون كثراً، ويسيئون معاملة الاقليات الدينية، ولا فرق عندهم بين العالم والجاهل.

اما اقتصاديات العراق فقد تدهورت جداً الى الحد الذي لم يستطع السكان في المدينة او الريف من مجابهة المصاعب الطبيعية، وهكذا ، بقوا عرضة للكوارث والمجاعات الرهيبة، حتى مطلع القرن العشرين. وقد انتعشت بعض المنتوجات الزراعية، مما زاد في تصديرها كالحبوب والتمور من اجل المقايسة بالبضائع الاجنبية التي اثارت تطلعات السكان الذين اقبلوا في الريف على توسيع المساحات المزروعة، في حين اقبل بعض المتنفذين من تجار المدن للتعامل الدولي مع السوق العالمية، وخاصة مع ايران، وقد استفاد العراق من ترانسيت التجارة الخارجية لایران. كما واصيبت الكمارك والمكوس بتغيرات كبيرة اسهمت في انتعاش التجارة على نحو بالغ وقد ادى ذلك الى زيادة حركة الاتصال بين الريف والمدينة من طرف، وبين العراق وجيرانه من طرف آخر، فتطورت طرق المواصلات فيه سواء كانت النهرية او البرية، إذ اسهم جسني Chesney على تنظيم الملاحة في نهر الفرات، ولكن لم يكتب لمشروعه النجاح لاسباب شتى.. كما وبدأت الحكومة التركية تسير بواخر منتظمة من نهر دجلة بين بغداد والبصرة في عام ١٨٦٢ م. وقد تأسست في العام نفسه شركة لنج البريطانية للملاحة في نهر دجلة.. وكانت الملاحة البحرية مزدهرة بين البصرة وموانئ الخليج العربي والمحيط الهندي.. كما واتصلت بغداد لأول مرة مع اسطنبول بخط تلغراف، ثم اتصلت مع طهران والبصرة والهند والموصل في عام ١٨٦٤ م، وشكل ذلك الحدث التاريخي اهمية بارزة في تاريخ العراق الحديث *.

مدحت باشا واصلاحاته في العراق ١٨١٩ - ١٨٧١ م

اشتهر اسم مدحت باشا كثيراً في تاريخ تركيا الحديث ذلك انه كان بطلاً للحركة الدستورية التي شهدتها الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر. وهو واضع قانوني لـ «الدستور العثماني» لعام ١٨٧٦ م. وكانت له مكانته في الحياة

* من المفيد جداً قراءة ما كتبه د. زكي صالح. مجلد تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني، القاهرة، ١٩٦٦.